الرؤية التوحيديّة وبناء المجتمع الديني في فكر محمّد حسين الطباطبائي

م.م. جعفر صادق أيوب الجزائري
كلية الإمام الكاظم (ع) للعلوم الاسلامية الجامعة

خلاصة البحث:

تتكفّل هذه الدراسة بيان دور الرؤية التوحيدية وأهمّيتها في تحديد هوية المجتمع الديني على ضوء منهج الفيلسوف والمفسّر الكبير محمّد حسين الطباطبائي وآرائه، نُضيء من خلالها على جانبين مهمّين للمجتمع؛ وهما الفكر (=العقيدة) والسلوك (= الأخلاق). حيث يقرّر العلامة أهمية بناء هذين الجانبين المهمّين في المجتمع على وفق رؤية توحيدية قرآنية، لإعطاء نظام للحياة يحقّق أهداف المجتمع ويوصله إلى سعادته المنشودة على وفق الرؤية الإلهية المرسومة له.. تناول الطباطبائي هذه الأفكار في مجموع مؤلّفاته الفلسفية والتفسيرية والعرفانية، وعلى شكل بحوث متعدّدة، يتعلّق بعضها بالعقيدة وتعريف الدين، وهي القضايا التي تنبثق منها أحكاماً أخلاقيةً تحدّد وتؤطر السلوك الأخلاقي العقلائي لسياسة المجتمع، فيوائم العلامة بين ما يحكم به العقل ويتوافق عليه العقلاء وبين ما يصدر من الشرع في رؤية أخلاقية دينية متكاملة لإدارة المجتمع والسير به نحو سعادته. وتبرز كل من العقيدة والأخلاق كجناحين يحلّق بهما المجتمع نحو الفلاح..

لكن وفي هذا السياق، هناك عقبات وصعوبات تواجه الرؤية الأخلاقية التوحيدية؛ تتمثّل بعضها: بالانسجام المنطقي في استكشاف قضايا الأخلاق المبنية على رؤية دينية وصلاحية هذه القضايا لإدارة المجتمع. هذا من جهة. ومن جهة أخرى ما يتوفّر لدى الإنسان من قيم أخلاقية أدركها بعقله وتجربته الاجتماعية وخطها كدستور في أخلاقياته الإنسانية لإدارةٍ بعيدةٍ عن الدين.. ولتجاوز هذا الأمر – على وفق الطباطبائي– يبرز دور عنصر (الفطرة) الذي وظّفه الطباطبائي كحلقة وصل بين الجانبين؛ لتضحى الأحكام العقلائية المزودة بعنصر (الضمير / الفطرة) متوافقة مع أحكام الشريعة المبلَّغة بوحي الأنبياء ورؤيته التوحيدية.

كلمات مفتاحية: الرؤية التوحيدية، الدين، المجتمع الديني، الأخلاق، الفطرة، الطباطبائي.

The monotheistic vision in defining the identity of Religious community in light of the views of Muhammad Hussein Tabatabai

Asst. Lect. Jaafar Sadeq Ayuob Aljazairy

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ - المجلد ٤٨ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

Abstract:

This research clarifies the role of the monotheistic vision in defining the identity of the religious community in the lights of the methodology and opinions of the great philosopher and interpreter Muhammad Hussayn Tabatabai, highlighting two important aspects of society: thought (belief) and behavior (morality). Where the scholar sets the importance of building these two important aspects in society according to a Quranic monotheistic vision, to give life a system that achieves the goals of a society and guides it to its happiness according to the appointed Divine vision, Tabatabai conjoined these ideas in his philosophical, explanatory, and mystical writings and in verious other studies, some of which are related to the doctrine and definition of religion, From those matters emerge the moral rulings that define and frame the moral and rational behaviors of society's policies. Then he aligns what the mind rules and accepts with what is emitted by the divine law in a completed moral and religious vision to guide the community and lead it to happiness. Thus, faith and morality emerge as two wings on which society soars towards success.

In this context, the moralistic monotheistic vision faces some obstacles represented in the logical harmony of exploring morality based on a religious vision and its validity to manage the community on the one hand, and the moral values that are realized with mind and social experience and ruled it as a constitution in the human ethics to manage his community, and here protrudes the role of the primitiveness that Al-Tabatabai used as a link between the two sides; to make the rational judgments that are supplied with (conscience/primitiveness) become compatible with the provision of the Sharia that were conveyed by the revelation of the prophets and its monotheistic vision.

Keywords: Monotheistic vision, Religion, Religious Community, Morality, Primitiveness, Al-Tabatabai .

المبحث الأوّل: تحديد المفاهيم وتعريفها

عندما نتكلّم عن المجتمع الديني كمفهوم نروم تعريفه وبيان عناصر تكوينه والوقوف على جوهره الديني، فمن الضروري جداً أن نعرف أنّنا نتكلّم هنا عن هوية هذا الاجتماع في جانب التكوين والمحدِّدات فقط، أعني بعيداً عن مقايسة المفهوم بحسب ما يناظره من مفهومات أخرى؛ كـــ (المجتمع المدَني) مثلاً، فإنّ أيّ مفهوم، كهذا المفهوم الأخير (=المجتمع المدَني)، يحمل بذاته تفسيرات متعدّدة وحمولة تأريخية وفلسفية بحسب نشأة الاصطلاح والمراد من استخدامه، وله محدّداته الفلسفية. فلا يمكننا الدخول بمقارنة إلا بعد تنقيح جوانب المصطلح كافة.

لذا، فنحن نقصد بالمجتمع الديني هنا، هو الاجتماع البشري الذي ينبغي أن يُبنى على وفق رؤية دينية أو منظور ديني.. مع غضّ النظر – على الأقل الآن– عن أنّ هذا المجتمع الديني قد يتداخل ويتعايش مع (مجتمع مدني) في بعض جوانبه داخل إطار الحياة الواقعية أو أنّه يتقاطع معها.. ومع غضّ النظر عن كيفية قبوله للـــ (الآخر) وهويته، وهل هو مهيّأ لقبول الآخر أو دمجه وذوبانه فيه أو كيف ينظر إليه؟ فهذا الأمر – الحكم بإمكانية التداخل والتعايش أو التقاطع – يحتاج بحثاً مستأنفاً وأكثر تحديداً للعناصر الفلسفية التي يرتكز عليها كل من المفهومين والجانبين.[1]

فما يهمنا هنا هو التركيز على العناصر المكوِّنة لهذا المجتمع أو التي ينبغي أن تكوّنه، في إطار رؤية لأحد المفكّرين والفلاسفة المعاصرين وهو محمّد حسين الطباطبائي.. بعيداً عن المقارنة مع الرؤى والهويات الأخرى للمجتمع، فهذا أمر غير متاحٍ في هذه الوريقات، وله حديث آخر أكثر سعةً وشمولاً وتحديداً.

يعتقد العلّامة أنّ مكوّنات الدين أمور ثلاثة[2]: العقيدة، والأخلاق، والسلوك (=الأحكام الشرعية). ولمّا كانت الأحكام ذات طابع تطبيقي تنظيمي للاجتماع البشري، فهي تحظى بأهمية قصوى في حفظ السلوك الاجتماعي واصطباغه بصبغة دينية.. لكن على مستوى المفهوم ودلالته يكون للعنصرين الأوليين (العقيدة والأخلاق) دور أبرز في صياغة مفهوم المجتمع الديني. وهذا لا يقلّل من خطورة السلوك (= الأحكام الشرعية) وما لها من تأثير فاعل في المجتمع، كما في تكوين الملكات النفسية والروحية والتي تؤثّر في صياغة تديّن الفرد وقوته، ومن ثمّ يكون لها انعكاس على عقيدته وأخلاقه، فالالتزام بالأحكام الشرعية من أساسيات المجتمع الديني ومقوّماته، لا شكّ في ذلك.. لكن هنا سنقتصر على محوري (العقيدة والأخلاق) بمقدار ما يوضح الأطر والمحدّدات النظرية لمفهوم (المجتمع الديني).

ولما كان هذا الاصطلاح (= المجتمع الديني) مركباً لفظياً مكوَّنا من مصطلحين في الأساس؛ لذا يلزم علينا تعريف كل من الاصطلاحين أوّلاً، ثم بيان المقصود من المركب الإضافي للكلمتين.

المطلب الأوّل: تعريف المجتمع

تذكر المعاجم الفلسفية والاجتماعية تعريفا مبدئياً متقارباً لمفهوم (المجتمع = *Society*) إذا لم نقل أنّه متطابق، سوى الاختلافات التي تتراءى من زوايا أخر ينظر إليها لمفهوم (المجتمع)، فـــ (المجتمع) في اللغة: "مكان الاجتماع ويطلق على الجماعة من الناس. واصطلاحاً: مجموعة أفراد تربطهم علاقات منظّمة وخدمات متبادلة، وتسودهم روح عامّة وتقاليد مشتركة يخضعون لها جميعاً."[٣]

ويعرف صاحب كتاب المدخل إلى علم الاجتماع "المجتمع عبارة عن نسق اجتماعي مكتفٍ بذاته، ومستمر في البقاء بفعل قواه الخاصة، ويضم أعضاءً من الجنسين (ذكوراً وإناثاً) ومن جميع الأعمار"[٤] فيركز على كونه تجمّع للأفراد – أكبر من الجماعة – ويكون مكتفٍ بذاته، بمعنى له وسائله الخاصة التي يحافظ بها على اجتماع وتعامله مع بيئته التي يعيش فيها.. ويعود للتركيز على جانب مهم للحدود التي يمكن أن توضع للـــ(المجتمع) فيقول: "يكاد يكون من المستحيل تعيين الحدود الحقيقية لمجتمعٍ ما"[٥]، لأنّ هذه الحدود توضع لمجتمع ما لاعتبارات وأهداف معيّنة يتم على ضوءها تعيين ورسم الحدود بين المجتمعات... بل حتى استخدام المصطلح في بعض المعاني الأكثر تحديداً لفكرة معيّنة أو اتجاه معين يعود في أساسه لهذه التحديدات والأهداف التي تكلّمنا عنها..

ومن هنا، نجد أن تعريف المجتمع لا يحوي بذاته محدّداً يمنع من انطباقه واحتوائه على فئات أو جماعات لديها بعض الاختلافات أو المميزات التي تختص بها كل جماعة منهم. وكذلك يمكننا أن نقدّر أنّ مفهوم مجتمع من دون إضافة معينة هنا يعادل مفهوم (أمّة) كما استخدمه المصطلح القرآني فقال: ﴿*إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ*﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وهكذا سيعادل مصطلح (المجتمع الديني) مصطلح (الأمة المتديّنة) في استخدامنا هنا الذي نريد تعريفه.

فلأجل بناء أمّة (=مجتمع) متديّنة أو بالاصطلاح المتداول (مجتمع ديني) سنحتاج الركائز الثلاث التي يبتني عليها الدين: العقيدة، والأخلاق، والسلوك. وهذا ما يشكّل عناصره الدين الإسلامي بشكلٍ واضح، لأنّه يغطّي الجانب العقيدي بمجموعة من الأفكار التي تشكّل وتبني ذهن الفرد في المجتمع المسلم المتديّن، ثم يتبعها بمجموعة من الدساتير الأخلاقية التي تُبنى عليها شريعة هذا الدين، مدعومة بنظام سلوكٍ ينظّم حياة الفرد داخل هذا المجتمع ويدير علاقته باتجاهاتها الثلاث؛ أعني مع خالقه، ونفسه، ومجتمعه. ونحن هنا سنركّز على الجانبين الأوليين (العقيدة، الأخلاق) لأنّ لهما المساس المباشر في تكوين الهوية الفكرية للمجتمع الديني، وإن كانت الأحكام الشرعية تمثل الضمانة الفعلية لاستمرارية المجتمع فلا تقلّ أهمية عن الجانبين الأخريين، لكن للحديث عنها فسحة أخرى.

المطلب الثاني: تعريف الدين

أولاً: الدين لغة: الدين (*Religion*): [٦]

يعدّ الدين –بشكل عام – من جملة المفاهيم التي يصعب إعطاء تعريف محدّد لها، ويعود ذلك إلى التنوع الهائل للأديان في المجتمعات البشرية. ولكنّ تحديدا للمفهوم بحسب المتعارف في اللغة سينفع في إعطاء تصور أدق عن وجهة السؤال الذي نبحث عن إجابة له؛ أعني: العلاقة بين الدين وأخلاق المجتمع الديني.

الدين في اللغة:

"(دَيَنَ) الدَّالُ وَالْيَاءُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ إِلَيْهِ يَرْجِعُ فُرُوعُهُ كُلُّهَا. وَهُوَ جِنْسٌ مِنَ الِانْقِيَادِ، وَالذُّلِّ. فَالدِّينُ: الطَّاعَةُ، يُقَالُ دَانَ لَهُ يَدِينُ دِينًا، إِذَا أَصْحَبَ وَانْقَادَ وَطَاعَ. وَقَوْمٌ دِينٌ، أَيْ مُطِيعُونَ مُنْقَادُونَ... فَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعَادَةَ يُقَالُ لَهَا دِينٌ، فَإِنْ كَانَ صَحِيحًا فَلِأَنَّ النَّفْسَ إِذَا اعْتَادَتْ شَيْئًا مَرَّتْ مَعَهُ وَانْقَادَتْ لَهُ.."[٧]

وجاء في لسان العرب[٨]:

١. "والدِّين: الْجَزَاءُ والمُكافأَة. ودِنْتُه بفعلِه دَيْناً: جَزَيته ... ويومُ الدِّينِ: يومُ الْجَزَاءِ."

٢. ".. والدِّينُ: الْعَادَةُ والشأْن، تَقُولُ الْعَرَبُ: مَا زالَ ذَلِكَ دِيني ودَيْدَني أَي عَادَتِي،"

٣. "... دَانَ نَفْسَهُ: أَي أَذلها واسْتَعْبَدَهَا، وقِيلَ: حَاسَبَهَا. يُقَالُ: دِنْتُ القومَ أَدِينُهم إِذا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِهِمْ،.. والدِّينُ لِلَّهِ مِنْ هَذَا إِنما هُوَ طَاعَتُهُ وَالتَّعَبُّدُ لَهُ. وَدَانَهُ دِيناً أَي أَذله وَاسْتَعْبَدَهُ"

وقال صاحب تاج العروس[٩]:

١. "(وَقد دِنْتُه، بالكسْرِ، دَيْناً)، بالفتْحِ (ويُكْسَرُ): جَزَيْته بفعْلِه.... وقولُه تعالَى: مالِكِ يَوْمَ الدِّيْن، أَي يَوْم الجزَاءِ..."

٢. "(و) الدِّيْنُ: (العادَةُ) والشَّأْنُ؛ قيلَ: هُوَ أَصْلُ المَعْنَى. يقالُ: مَا زالَ ذلكَ ديني ودَيْدَني، أَي عادَتي"

٣. "(و) الدِّيْنُ: (الطَّاعَةُ)، وَهُوَ أَصْلُ المعْنَى؛ وَقد دِنْتُه ودِنْتُ لَهُ: أَي أَطَعْته"

إذن، ذكرت في معاجم اللغة ثلاث معانٍ لكلمة (الدين)، خلاصتها[١٠] أنّ الدين في اللغة: مشتق من الفعل الثلاثي: (دان)، وهو تارة يتعدى بنفسه، وتارة باللام، وتارة بالباء، ويختلف المعنى باختلاف ما يتعدى به:

– فإذا تعدى بنفسه يكون (دانه دِيناً) بمعنى مَلَكه، وساسه، وقهره وحاسبه، وجازاه وكافأه. فالدين هنا في هذا الاستعمال يجوز على معنى الملك والتصرف بما هو شأن الملوك من السياسة والتدبير، والحكم والقهر، والمحاسبة والمجازاة ومن ذلك قوله تعالى: **(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)**.

– وإذا تعدى باللام يكون (دان له) بمعنى خضع له، وأطاعه. فيكون الدين هنا هو الخضوع، والطاعة، والعبادة، والورع. وكلمة (الدين لله) بهذا المعنى: الحكم لله، أو الخضوع لله.

– تعدى بالباء يكون (دان بالشيء) بمعنى اتخذه ديناً ومذهباً واعتاده، وتخلّق به، واعتقده.

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ – المجلد ٤٨ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

فالدين على هذا هو المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء، نظرياً أو عملياً. فكلمة الدين تشير في القواميس إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له، ومادتها اللغوية تدور حول الانقياد والطاعة كما قال صاحب مقاييس اللغة.[١١]

وبعد أن استوضحنا المعنى اللغوي للدين، ولما كان بحثنا معنياً بدراسة تحليلية لرأي شخصية مهمة في هذا المجال، سيكون التركيز في بيان المعنى الاصطلاحي على رأيه لنستوضح من خلاله تحديد الاصطلاح لديه بما ينفعنا في البحث.

ثانياً: تعريف الدين اصطلاحاً:

أمّا المعنى الاصطلاحي للدين، فهناك تعريفات مختلفة طرحت وبحسب وجهات النظر والمنطلقات التي صدر عنها الباحثون، من فلاسفة أو إسلاميين أو من العلماء الغربيين ذوي الاختصاصات الأخرى، فقد "قدّم المفكّرون الغربيّون بما يعمّ: الفلاسفة منهم، والمتكلّمين، وعلماء النفس والاجتماع، والدراسات الدينيّة، حتّى الآن تعاريف: معياريّة، وماهويّة وصفيّة، وأخرى وظائفيّة، ناهيك عن التعاريف المركّبة والممزوجة في موضوع (الدين)"[١٢]، فالذين درسوا هذا الموضوع تفاوتت تعريفاتهم هذه بين توسيع للمعنى لكل عقيدة لها اتباع، فشملت حتى عبدة الأوثان والحيوان وغيرها. وبعضهم ضيّق في اصطلاح الدين فجعله ذا مفهوم فلسفي خاص لا يتناسب مع العرف وما هو لدى العامة ، كما في تعريف (ماكس ميلر) حين يقول أن الدين هو: "محاولة تصور ما لا يمكن تصوّره"[١٣]، ولكننا سنركز على رأي العلامة الطباطبائي لأنّ بحثنا مهتم به هنا كما قلنا سابقاً .

تعريف الدين عند الطباطبائي:

عندما نراجع رأي الطباطبائي فنجده هو الآخر يلتقي مع مفكرين آخرين[١٤] في اشتراط (الإلوهية) في تسمية الدين بأنّه دين حقيقة، يقول العلامة الطباطبائي: "بيد أنّ الدين الذي ينطوي على القيمة الحقيقية للدين، ويستحق اسم الدين الإلهي، هو فقط الذي يُعبد فيه اللّه الأحد، وأثبت رابطة النبوّة، وقال بعقيدة المعاد (أي ابتنى على الأصول الثلاثة: التوحيد، النبوة، والمعاد) و هذه المواصفات تنصرف الى الأديان الأربعة: اليهودية و النصرانية والمجوسية والإسلام."[١٥]

ويقول فى تفسير الميزان: "حد الدين ومعرّفه[١٦]، وهو أنه نحو سلوك في الحياة الدنيا يتضمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي، والحياة الدائمة الحقيقية عند الله سبحانه، فلا بد في الشريعة من قوانين تتعرض لحال المعاش على قدر الاحتياج."[١٧]وهكذا فإن العلامة الطباطبائي يرى أنّ الإطلاق (الصحيح) طبقاً للرؤية الإسلامية لـــ (مصطلح الدين) هو خصوص الدين الإلهي، والإسلامي تحديداً:

"أما بقية الأديان، فلا يرى الإسلام أنّها تستحق قيمة الدين الواقعي الذي يضمن السعادة الإنسانية و يحقّق للبشرية ويؤمّن لها منافع الدنيا والآخرة، رغم أنّها تنطوي على نظريات واقعية حقة، من قبيل إثبات الصانع،

وتحمل شيئا من الأخلاقيات والمعنويات القابلة للتصديق".[١٨] لكنه لا يرى أنّها تامة ومكتملة مثل الدين الإسلامي، فهو المصداق الأكمل لهذا المصطلح.

المبحث الثاني: العنصر العقائدي

المطلب الأوّل: عقيدة التوحيد

يبيّن العلامة الطباطبائي أنّ عقيدة التوحيد هي الضمان الأساس للجانب الأخلاقي للسلوك البشري، ولا يمكن أن يصل المجتمع إلى أيّ نتيجة مفيدة في تحقيق غاياته من دون اعتماده على فكرة وعقيدة (التوحيد) الفطرية، قال تعالى: (**أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ**) [إبراهيم: ١٠] فالإنسان سيصل إلى الاعتقاد بالتوحيد بمجرّد أن ينظر نظرة نقية وبنفس مطمئنّة إلى عالم الخلق والتكوين من حوله، فسيجد آثاراً تدل على وجود الخالق وترشده إلى خالقه المعبود الواحد، لأنّه سيرى من حوله ترابطاً في حلقات الوجود ، تشكل نظاماً متسقاً للكون، فلا بد أن يكون مصدر هذه الوحدة والاتساق إلهاً واحداً.[١٩]

كما يعتقد العلامة الطباطبائي أنّ فكرة التوحيد كما هي أساس باقي الاعتقادات الحقّة التي ينبغي أن تنطوي عليها عقيدة الإنسان (العدل الإلهي، والنبوة، والمعاد) ، بل أنّ الضامن لوجود هذا النوع من الأخلاق الإلهية هو ارتكازها على فكرة التوحيد والحبّ الإلهي، فـــ"**الأخلاق الفاضلة أيضاً تحتاج في ثباتها واستقرارها إلى ضامن يضمن حفظها وكلاءتها وليس إلا التوحيد أعني القول بأنّ للعالم إلهاً واحداً ذا أسماءٍ حسنى خلق الخلق لغاية تكميلهم وسعادتهم وهو يحبّ الخير والصلاح، ويبغض الشر والفساد وسيجمع الجميع لفصل القضاء وتوفية الجزاء فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ...**"[٢٠] فنجد أنّ فكرة التوحيد عند الطباطبائي كذلك ، إضافة لكونها عقيدة حقّة بنفسها ومصدراً لتفرع سائر العقائد عليها، تشكل الضمانة الحقيقة للأخلاق الإنسانية التي توصله إلى هدفه المنشود وسعادته الأبدية.

فيجب أن تصاغ الأخلاق في المجتمع الديني تبعاً لهذه العقيدة وما سيتفرع منها من سلوكيات أخلاقية يتصف بها الفرد في المجتمع الإنساني المتدين.

ويؤكد على "**أنّ الأخلاق إذا اعتمدت على هذه العقيدة لم يبق للإنسان هم إلا مراقبة رضاه تعالى في أعماله، وكان التقوى رادعا داخلياً له عن ارتكاب الجرم ولولا ارتضاع الأخلاق من ثدي هذه العقيدة عقيدة التوحيد لم يبقَ للإنسان غاية في أعماله الحيوية إلا التمتّع بمتاع الدنيا الفانية والتلذذ بلذائذ الحياة المادية**"[٢١]

والسبب الذي يجعل من عقيدة التوحيد هي الأساس للدين وللأخلاق أنّ الباعث للمجتمع بأفراده بنحو الالتزام بالقوانين يكون من خلال ثلاثة أمور، يقول الطباطبائي: فـــ"**يحصل التقوى الديني بأحد أمور ثلاثة وإن شئت فقل: إنّه سبحانه يعبد بأحد طرق ثلاثة: الخوف والرجاء والحب**"[٢٢] ومن هنا رتبت الطاعة لله تعالى بمراتب ثلاث: طاعةُ وعبادةُ العبيد، وطاعةُ وعبادةُ التجّار، وطاعةُ وعبادةُ الأحرار. والأخيرة هي المبتنية على الحبّ لله تعالى وصفاته المقدسة.

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ - المجلد ٤٨ - كانون الأول السنة ٢٠٢٣

وهذه العقيدة تمثل مدركاً فطرياً يستحوذ على الإنسان لو خلي هو وفطرته النقية، لكن المعوقات التي تطرأ قد تشوش عليه إدراك هذه الحقيقة، وتغطي على وضوحها وارتكازها داخل خلقة الإنسان. لذا يرصد الطباطبائي ثلاثة أمور يمكن أن تكون أسباباً أساسية لانحراف عضو المجتمع الديني عن عقيدته الدينية، وتشكل خطراً عقائدياً عليه، ووضع بجانبه المعالجات التي اقترحها الدين لمثل هذه الحالات، وهي كما سنوضحه في المطلب الآتي.

المطلب الثاني: الهداية نحو التوحيد والتحدّيات:

الإنسان كائن حرٌّ مختار، وربما يُتصوّر أنّ إعطاء الحرية على مستوى العقيدة، لا يشكّل ضمانة لحسن الاختيار، وفي آخر المطاف قد تضيع أهداف الدين التي يرجوها وراهن فيها على (الإرادة الحرّة) للمجتمع الديني في اختيار العقيدة الحقّة التي يريدها الإله (=التوحيد). هذا الكلام منطقي وصحيح، وفي حقيقة الأمر هو توضيح لمفهوم الاختيار نفسه وروحه وقيمته الأخلاقية، ولا يشكّل هاجس خوف وقلق البتّة على المجتمع الديني، بل إنّ العنصر الذي يريده الله تعالى لينطبق عليه عنوان (العبودية) لله تعالى يجب أن يتحقق على هذا النحو وبوساطة (الاختيار / الإرادة الحرة) لا غير، وإلا سيفقد أي قيمة لكونه (إنساناً) بمعنى هذا الكائن المتميّز عن المخلوقات الأخرى التي تفتقر لعنصر الاختيار والإرادة.

لكن – وبحسب الطباطبائي – وعلى الرغم من ذلك لم يترك الإنسان لتتلاطمه أمواج الضلال ويتيه في تحديات الحياة لوحده من دون هداية، فيفقد بوصلته ويضيع جهده. بل زرع الله تعالى هذه الهداية في روح الإنسان وجعلها (فطرة) وبوصلة توجهه إذا ما أراد الاسترشاد بها.. فالتحدّيات التي تواجه الإنسان يمكن أن تكون على أنواع ثلاث عالجها الدين من خلال مشروعه ورؤيته المتكاملة من دون المساس بعنصر (الإرادة الحرّة = الحرية) الذي بدأنا به ليُحسن الإنسان اختيار عقيدته (التوحيد = الهوية الدينية).

تحدّيات فطرة التوحيد:

يحدد الطباطبائي تجاه حياة الإنسان وحسن إعمال إرادته الحرّة، ثلاثة تحديات يحتاج لتجاوزها والتغلب عليها، **وكالآتي:**

التحدي الأول: اختلاف الأخلاق النفسانية والصفات الباطنة:

ويتكلّم فيها الطباطبائي عن تفاوت الأنفس في قابلياتها واستعدادها، وبحسب ما انطوت عليه من ملكات وراثية أو تربوية، يقول: "**اختلاف الأخلاق النفسانية والصفات الباطنة من الملكات الفاضلة والردية فإنّ لها تأثيراً وافراً في العلوم والمعارف الإنسانية من حيث الاستعدادات المختلفة التي تودعها في الذهن فما إدراك الإنسان المنصف وقضاؤه الذهني كإدراك الشَّموس المتعسّف، ولا نيل المعتدل الوقور للمعارف كنيل العجول والمتعصّب، وصاحب الهوى والهمجي الذي يتبع كل ناعق والغوي الذي لا يدري أين يريد؟ ولا أنّى يراد به، والتربية الدينية تكفي مؤنة هذا الاختلاف فإنها موضوعة على نحو يلائم الأصول الدينية من**

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ – المجلد ٤٨ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

المعارف والعلوم، وتستولد من الأخلاق ما يناسب تلك الأصول وهي مكارم الأخلاق"[٢٣] ، ونلاحظ أنّ القرآن يرصد لها علاجاً يتمثل بالممارسة الأخلاقية التي تجعل الإنسان معتدل المزاج قويم الذهن قوي الإرادة. قال تعالى: **(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [المائدة: ١٦].**

التحدّي الثاني: اختلاف الأفعال:

حيث يرى الطباطبائي أنّ أفعال الإنسان لها نتائج على طبيعة اعتقاداته واختياره، ويكون الإنسان هو المسؤول عن توجيه اختياراته من خلال ما يزود نفسه به من مَلَكات الأفعال التي يمارسها حسنة أو قبيحة، فـ (الإرادة الحرّة) لا تنتفي عن الإنسان، لكنّه هو (المسؤول) عن جودة أدائها وبيده زمام الأمر.. "**فإن الفعل المخالف للحق كالمعاصي وأقسام التهوّسات الإنسانية ومن هذا القبيل أقسام الإغواء والوساوس يلقن الإنسان وخاصة العامي الساذج الأفكار الفاسدة ويعد ذهنه لدبيب الشبهات وتسرب الآراء الباطلة فيه وتختلف إذ ذاك الأفهام وتتخلف عن اتباع الحق!**"[٢٤] وكذلك هنا لم يترك الإنسان وحده ليواجه التحدي منفرداً بل وزعت المهمة على أقرانه في المجتمع ، وتم تفعيل دور الأمر بالممعروف والنهي عن المنكر اجتماعياً"**حيث أمر المجتمع بإقامة الدعوة الدينية دائما، أولا. وكلّف المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثانياً، وأمر بهجرة أرباب الزيغ والشبهات**"[٢٥] وبين ذلك وحث عليه بشكل مؤكد وجعله وظيفة اجتماعية منوطة بالفرد بما هو عنصر مجتمعي، قال تعالى : **(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [آل عمران: ١٠٤].**

التحدّي الثالث: العامل الخارجي عن ذات الإنسان:

العامل الثالث الذي يشكّل تحدياً في إعمال حسن الاختيار والوصول للحق في (العقيدة الدينية) مع توفر (الحرية) الكاملة له، هو البعد عن مصادر المعرفة أو بلادة الذهن وصعوبة الفهم ونيل الحقائق، ويبرز الطباطبائي هنا عنصر البعد عن مصدر المعرفة المكاني، فلا يصله التبليغ الديني أو بعد في قدرةً في الاستيعاب ودرك الحقيقة لبرودة ذهنه وبلادته؛ لعدم تمرّسه على تداول المعارف والتفكر فيها، فيعبر عنها: "**كبعد الدار وعدم بلوغ المعارف الدينية إلا يسيرة أو محرفة أو قصور فهم الإنسان عن تعقل الحقائق الدينية تعقلا صحيحا كالجربزة والبلادة المستندتين إلى خصوصية المزاج**"[٢٦]. وبالمستوى نفسه يوظف الإسلام عنصراً مهماً للإنقاذ وتفكيك هذا الخطر بحدوده الإنسانية المعقولة، وبما يتناسب مع شروط الاجتماع البشري. فالعلاج يبدأ أولاً بتعميم الوعي ونشره قدر الإمكان ليصل إلى أكبر عدد ممكن وابعد مكان . ثم ينتهج هنا منهجاً يكمّل المسؤولية يعتمد الرفق، والمخاطبة باللين.. والنزول لنفس مستوى العقل والمخاطبة بلغة يفهمها" وهذان [التعميم والرفق] من خصائص السلوك التبليغي في الإسلام، قال تعالى: **(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)** [يوسف: ١٠٨]، ومن المعلوم أن البصير بالأمر يعرف مبلغ

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ - المجلد ٤٨ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

وقوعه في القلوب وأنحاء تأثيراته المختلفة باختلاف المتلقين والمستمعين فلا يبذل أحد إلا مقدار ما يعيه منه، وقد قال رسول الله (ص) على ما رواه الفريقان: إنا معاشر الأنبياء نكلّم الناس على قدر عقولهم ، وقال تعالى: **فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**).[التوبة: ١٢٢]"[٢٧]

وبذلك يصون الدين مجتمعه من الوقوع فريسة للضلال عن طريق الحق في العقيدة، لبعض العقبات التي تطرأ في طريق الإنسان، هذا الإنسان الذي أريد له أن يكون لبنة صالحة في تشكيل (المجتمع الديني) وجعله متماسكاً قوياً سائراً بطريق موحّد نحو سعادته الأبدية التي ارتضاها له خالقه الواحد الأحد.

المبحث الثالث: العنصر الأخلاقي

المطلب الأوّل: مسالك الأخلاق

يهتم العلامة الطباطبائي في الجانب الآخر بالإنسان سلوكياً، سواء كان الإنسان فرداً لذاته أم بما هو عنصر تكوين المجتمع الديني، فيحدّد نوعين من السلوكيات التي تدير حياة هذا الإنسان، وهما (الأخلاق) و(الأحكام الشرعية). وهذان النوعان ربما يتداخلان على مستوى المصاديق والتطبيق الخارجي، لكنهما وعلى الرغم من اتحادهما في الخارج كمفهومين ومعطيين يغذيان حياة الإنسان فهما مختلفان في المبدأ والمنهج والغايات والأهداف؛ فـــ(الأخلاق) قد تكون وليدة عملية إدراك عقل إنساني لحاجاته المجتمعية التي ينبغي أن يولدها لينعم بالاجتماع السعيد، وقد تكون وليدة نصوص وَحْيانية جاءت بها رسالات دينية تؤكدها وتدعو لها لتحقيق سعادة أخروية لحياة الإنسان، فحينئذٍ تمثل في جانبها القيمي أخلاقاً وَحْيانية وفي جانبها التطبيقي أحكاماً شرعية، لكن كلا الأمرين على حد سواء يستهدفان إدارة سلوك الإنسان وإدارته لغايات وأهداف محددة. ولنلقي الضوء على دور كل واحد منهما في تكوين جوهر المجتمع الديني لدى الطباطبائي.

عند حديث العلامة عن (المسالك الأخلاقية) في تفسير الميزان في الجزء الأول، والذي نفترض أنّه من بدايات ما كتبه (رحمه الله)[٢٨]، ففي تفسيره يذكر العلامة الطباطبائي وجود ثلاثة مسالك[٢٩]، يميّز بينها بحسب الغايات المطلوبة والأهداف المنشودة من الفعل، وبدورها تعطي تشكيلا لطبيعة الإنسان ومجتمعه الذي يروم تكوينه، فيركز الطباطبائي في بحثه بشكل واضح وصريح حول الغاية والهدف من وراء الفعل الأخلاقي.

وأسفر كلام العلامة وتحليله عن ثلاثة مسالك يفرزها بوضوح وتصريح منه، تختلف بحسب الغايات التي ميّزها، ثم يختار منها المسلك الثالث، وهو مسلك اختص به وببيانه القرآن، ويطلق عليه مسلك الأخلاق التوحيدية. أما المسالك الثلاث فهي كما يلي:

المسلك الأول: مسلك الأخلاق الاجتماعية[٣٠]، وهو مسلك الفلاسفة والمادّيين، وهو ذو نظرة مادية وتكون الغاية في هذا المسلك غاية دنيوية.

المسلك الثاني: مسلك التكاليف الدينية وهو مسلك الغاية الأخروية، حيث تستهدف الأخلاق الثواب وتجنب العقاب الأخروي.

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ - المجلد ٤٨ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

المسلك الثالث: الأخلاق التوحيدية أخلاق الحب والعبودية، وهو المسلك الذي اختص القرآن ببيانه والتأكيد عليه حيث تكون الغاية فيه (رضوان الله تعالى).

ولنبين خصائص كل واحد من هذه المسالك بحسب ما جاء في كلام الطباطبائي.

المسلك الأول: الأخلاق الاجتماعية

وهو مسلك ذو نظرة مادية لفلسفة الحياة، وتكون **الغاية** في هذا المسلك **غاية دنيوية.** تستهدف المديح والثناء والتحسين المجتمعي للأفعال، حيث يصف المجتمع من يقوم بهذه الأفعال المعينة بصفات المدح والثناء، ويسم من يقوم بخلافها بأوصاف الذمّ والتقبيح. ونسبه العلامة للفلاسفة، وعدّه مطابقاً مع رؤيتهم للباعث والواعز الأخلاقي. قال العلامة الطباطبائي: "**وهذا هو المسلك المعهود الذي رتب عليه علم الأخلاق، والمأثور من بحث الأقدمين من يونان وغيرهم فيه..**

ولم يستعمل القرآن هذا المسلك الذي بناؤه على انتخاب الممدوح عند عامة الناس عن المذموم عندهم، والأخذ بما يستحسنه الاجتماع وترك ما يستقبحه، نعم ربما جرى عليه كلامه تعالى فيما يرجع بالحقيقة إلى ثواب أخروي أو عقاب أخروي"[٣١]، بمعنى أن هذه القضايا المادية المستهدفة والمديح من العقلاء قد يتوافق مع ما دعا له الله تعالى في تعاليمه الدينية، ويكون مما يتوافق مع وقوع الثواب والأجر الأخروي عليه فلا ضير في اجتماع ذلك. لكن المنظور من لدن الفاعل والغاية القصوى المنشودة هي تحسين العقلاء لفعله وتجنب ذمهم له.

ويحدد العلامة قيماً عليا أربع يعتبرها هي الصفات الممدوحة التي يجب أن تكون في حالتها الوسطية الممدوحة لدى العقلاء "وهذه هي **العدالة والعفّة، والشجاعة، والحكمة** التي ذكرنا أنّ الاجتماع الإنساني كيف ما فرض لا يحكم إلا بحسنها وكونها فضائل إنسانية، وكذا كيف يتيسر لاجتماع أن لا يحكم بوجوب الانقباض والانفعال عن التظاهر بالقبيح الشنيع..."[٣٢].

على أنّ وضع العلامة للمباني الأخلاقية (المادية والفلسفية) في مذهب واحد ومسلك متّحد، لا يعني أنّهما متحدان ومتطابقان من كلّ الجهات والحيثيات، لكن من جهة الآثار المشتركة المترتبة عليهما جعلته يذكرهما في مسلكٍ واحد. فالرؤية الكونية المادية لا تعتقد بوجود شيء ما وراء المادة، وبنظرها أنّ الوجود يساوي المادة، وأن تحصيل السعادة الكاملة للإنسان (=الغاية) يتأتى عن طريق تحقيق اللذائذ المادية والرفاه الدنيوي. في هذا السياق وجدت الأفعال حسنها وقبحها بملاكات وغايات مادية، وعن طريق مدح فعل الإنسان وذمّه، وهو مرتبط بتحقيق المقاصد والأهداف المادية وتجسيدها.

وهذا المسلك –وكما سيأتي– لا يشكّل عند الطباطبائي هوية للمجتمع الديني الذي يتبناه، لكنّه يعدّه رصداً لطبيعة الإدراك الأخلاقي الذي يتوفّر عليه العقل البشري في مرحلة ومستوى من الحس الأخلاقي الذي يعيشه. لكن هوية المجتمع الذي يريد (الدين) تشكيله تحتاج مستوى ذا تدخلٍ آكد من الوحي والنص الديني ليصح وصف المجتمع بأنّه (ديني).

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ – المجلد ٤٨ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

المسلك الثاني: وهو مسلك التكاليف الدينية والغاية والسعادة الأخروية.

وهنا نجد اختلافا واضحاً عن وجهة المسلك الأول، وهذا المسلك هو محور تعاليم الأنبياء السابقين والكتب السماوية السابقة وهو كذلك محور لتعاليم ديننا ونبينا (ص) ومما ذكره القرآن أيضاً وفي آيات كثيرة. وهو ما دعت إليه الشرائع الإلهية والأنبياء جميعا.

والفارق الجوهري بين هذا المسلك وسابقه أنّ الأول يستمد تعاليمه من الإنسان، ويحدّد غايته الإنسان، ويقيّم سعادته من خلال الإنسان نفسه تحسيناً وتقبيحاً. لكن هذا المسلك له غاية أخروية يحددها الله تعالى وكتبه (=الدين)، ويدعو إلى سعادة حقيقية تتجاوز هذه الحياة إلى حياة أبدية مستمد من تعاليم الأنبياء وإرثهم. فالأساس المعرفي للأخلاقيات في هذا المسلك تعدّ أشمل وأكمل طريق لتهذيب النفس والتخلق بالأخلاق الحميدة، وذلك من خلال طريق الالتفات للأحكام العقلية الكلّية؛ وعن طريق التنبه للفوائد والمضار الأخروية للأعمال، وأيضا الاعتقاد والإيمان بالسنن الإلهية كالقضاء والقدر.

وفي هذا الطريق، كما هو في الطريق السابق والمسلك الأول (الفلسفي – المادي)، يكون ملاك الفعل الأخلاقي هو اعتدال قوى النفس واجتناب الإفراط والتفريط في السلوك أيضاً، مع فارق هنا وهو أن الدافع في هذا المسلك تحصيل السعادة الحقيقية في الحياة الآخرة بتوجيه ديني مباشر.

ويحاول الطباطبائي توضيح السبل والطرائق المفيدة للحصول على هذه الأخلاق، على وفق هذا المسلك، فلا بد من الخلاص من قوة الخيال والوهم، وإدراك الوجود بطريق عقلي برهاني. فطالما لم تصل نفس الإنسان إلى مستوى الإدراك العقلي وتبقى ترى العالم الخارجي بوساطة قوة الخيال والوهم سيكون إدراكها الأخلاقي في ساحة الخيال والوهم أيضا، بدلاً من إدراك الفضائل والرذائل الواقعية والحقيقية، ستعتمد على المشهورات والعرفيات في أحكامها (= المسلك الأول)، ومن ثمّ فإنّ التصور العرفي هو الذي يعكس واقع النفس وما تعتقده. في حين أنّ واقع النفس وحقيقتها شيء آخر.

فإن الأخلاق في هذه المرحلة مبنيةٌ على إدراك النفس للفضائل والرذائل، وليس على ما يعتقده الآخرون. فعنصر الحكم هنا هو الفرد نفسه، وليس الشعور الاجتماعي والعقل الجمعي؛ لأنّ عقل الفرد يكون أحكامه بلا وساطة. وعلى هذا فإدراكه لنفسه يكون أكثر اطمئناناً ووثوقاً من إدراكه للحقائق بوساطة الآخرين.

هذا المسلك الذي اختطه عموم الأنبياء (عليهم السلام) وهو مما أقرّه القرآن الكريم ودلت عليه آيات قرآنية كثيرة. ويمكن تسميته مسلكاً دينياً لتشكيل أخلاق المجتمع. ففي هذا المسلك يحاول الأنبياء من خلال بيان مراحل حياة الإنسان ومنذ بداية الولادة بل وما قبلها وحتى آخر مرحلة من حياته في الآخرة ودخوله الجنّة أو النار واعتماد سعادته أو شقاوته الأخروية على نوع أعماله في الحياة الدنيا وطريقة اختياره الصحيحة. ولهذا السبب يقوم بتزكية نفسه وتهذيب أخلاقه حتى يستطيع –الاستفادة والغنم من النعيم الأخروي والتمتع بالجنان. ويكون بمنأى وأمان عن عذاب الآخرة والنيران.[٣٣]

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٨ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

المسلك الثالث: الأخلاق التوحيدية أخلاق الحبّ والعبودية لله تعالى

وهو المسلك الذي اختص القرآن ببيانه والتأكيد عليه حيث تكون الغاية فيه (رضوان الله تعالى). فهذا مسلك وطريق ثالث لتهذيب النفس وإصلاح الأخلاق، وعلى حد تعبير العلامة الطباطبائي فإن هذا المسلك من مختصات القرآن الكريم ولا تجده في غير تعاليمه. ويعتمد على فهم هذه النكته: ألا وهي أن يصل الإنسان بنفسه إلى مقام العبودية لله (عبداً لله) وتكون كل حركاته وسكناته بدافع رضوان الله تعالى. فهنا – فضلاً عن أنه لا يعتني بالمنفعة الدنيوية أو بتحسينات الآخرين وآراءهم – سوف لا يكون همّه الثواب الأخروي ولا النجاة من العقاب. بل سيكون همه الوحيد جلب رضوان الحق تعالى وتحقيقه والوصول لمقام العبودية، وحالة من الحب بين الخالق والمخلوق: "وقد أهدى هذا المسلك إلى الاجتماع الإنساني جماً غفيراً من العباد الصالحين، والعلماء الربانيين، والأولياء المقربين رجالا ونساء، وكفى بذلك شرفا للدين.

على أنّ هذا المسلك ربّما يفترق عن المسلكين الآخرين بحسب النتائج، فإنّ بناءه على الحبّ العبودي، وإيثار جانب الربّ على جانب العبد، ومن المعلوم أن الحبّ والوَله والتَيم ربّما يدلّ الإنسان المحبّ على أمور لا يستصوبها العقل الاجتماعي الذي هو ملاك الأخلاق الاجتماعية، أو الفهم العام العادي الذي هو أساس التكاليف العامة الدينية، فللعقل أحكام، وللحب أحكام"[٣٤]

قد يقال إنّ الإنسان شاء أو أبى لا بد من قصد وغاية لأفعاله في جلب منفعة أو دفع مضرة، لكن هنا في هذا المسلك لا يكون المحور للعمل هو كسب النفع أو دفع الضرر؛ لأن العبد هنا يصل – بحسب الافتراض – إلى مقام لا يرى لوجوده استقلالية ليكون له غاية في جلب النفع لنفسه أو دفع الضرر عنها، بل سيكون أساس حركته ومحورها هو مقام الشوق والمعرفة الإلهية. فيكون هدفه هو المحبوب الله تعالى، ولا يوجد دوافع أو أي أهداف لها قيمة قباله، لأنّه اطلع وأدرك حقيقة نفسه وقيمتها في هذا الوجود في مقام الخالق والمحبوب، فيستحيل عليه أن يُقدِم على فعل لغاية نفسية وهو لا يرى لنفسه شأناً من الشأن ولا غاية له إلا كسب رضوان الله ورضا المحبوب، يقول العلّامة: "**وهاهنا مسلك ثالث مخصوص بالقرآن الكريم لا يوجد في شيء مما نقل إلينا من الكتب السماوية، وتعاليم الأنبياء الماضين سلام الله عليهم أجمعين، ولا في المعارف المأثورة من الحكماء الإلهيين، وهو تربية الإنسان وصفا وعلما باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل، وبعبارة أخرى إزالة الأوصاف الرذيلة بالرفع لا بالدفع.** ...إلخ"[٣٥].

والعنصر الفاعل في هذا المسلك الذي تستمد الأخلاق عنصر الإلزام والالتزام لتطبيق المنظومة والتشريعات الأخلاقية – والإلزام جوهر الأخلاق– هو طبيعة العلاقة بين العبد وخالقه، فلما كانت الغاية من وجود الأخلاق بوجه عام حث الإنسان لنيل السعادة وقيادة المجتمع نحو كماله وسعادته، كان الإيمان بفكرة التوحيد والإيمان بأن لهذا المجتمع والكون خالقاً واحداً، يعبده الناس ويرتبطون معه برباط الحب والشوق ، كفيلاً أن يجعل من الإنسان العارف بمقامه وبخالقه وقتئذٍ ، مطيعاً وملتزماً ومن المحال أن يعصي هذا الخالق المحبوب أو يخالفه في أوامره أو يرتكب نواهيه وهو بين يديه وحاضر في مملكته، فتكون الأخلاق – أخلاق

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ – المجلد ٤٨ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

الحب والتوحيد – رادعاً قوياً وملزماً فاعلا للالتزام بالتوصيات التي يريدها هذا المحبوب الواحد. وهكذا يتشكل لدينا رباط (المجتمع الديني) بفاعلية الحبّ التوحيدي داخل الفرد المتدين الموحّد لله تعالى.

المطلب الثاني: ضرورة النبوّات لدعم الأخلاق

بحسب نصوص العلامة في تفسير الميزان فإنّ هناك حاجة أساسية للنبوّات في تدعيم الأخلاق المجتمعية ودعمها، وهذا ما يجعلها **أخلاقاً دينية للمجتمع**. وذلك بوساطة".. هداية قولية من طريق الدعوة ببعث الأنبياء وإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع الإلهية. ولم يزل التدبير الربوبي تدعم الحياة الإنسانية بالدعوة الدينية القائم بها أنبياؤه ورسله ..."[٣٦]

بل لا يمكن أن تكن ثمّة أخلاق من دون إلهام أو رعاية النبوّات والديانات. وهذا يثبت العلاقة والرابطة المتينة ما بين الأخلاق والدين عند العلامة الطباطبائي، وإن بدا تفسيره لبعض القضايا المتعلقة بالأخلاق– ومن حيثية معرفية بحتة، وتركيزاً على الجانب التحليلي لتكوّن وإدراك قضايا الأخلاق– منقطعا ومنفصلا عن الجانب الديني. لكنّه يعود في آخر المطاف ليربط ما بين هو ديني وما هو مدرك عقلي أخلاقي برباط وشيج يرى الطباطبائي أنّه لا تنحل عراه البتة.

يقول العلامة الطباطبائي: "**إن قلت: كفى في الدعوة ما يدعو إليه العقل من اتباع الإنسان للحق في الاعتقاد والعمل، وسلوكه طريق الفضيلة والتقوى، فأيّ حاجة إلى بعث الأنبياء؟!**

قلت: العقل الذي يدعو إلى ذلك، ويأمر به هو العقل العملي الحاكم بالحسن والقبح، دون العقل النظري المدرك لحقائق الأشياء كما مر بيانه سابقا، والعقل العملي يأخذ مقدمات حكمه من الإحساسات الباطنة، والإحساسات التي هي بالفعل في الإنسان في بادي حاله هي إحساسات القوى الشهوية والغضبية، وأمّا القوة الناطقة القدسية فهي بالقوة، وقد مر أن هذا الإحساس الفطري يدعو إلى الاختلاف"[٣٧].

فيجد العلامة الطباطبائي في النبوّات صمام أمان للعقل العملي (الضمير) الذي يحرك ويحكم بالقضايا الأخلاقية. لأن العقل لا يعصم نفسه عن الخطأ في الاختيار، وهو يتأثر بعوامل التربية المحيطة به والظروف المكتنفة له. يقول أيضاً:

"**وأنت إذا حلّلت المفاسد الاجتماعية والفردية حتى في المفاسد المسلّمة التي لا ينكرها منكر وجدت أن الأساس فيها هي الأعمال التي يبطل بها حكومة العقل، وأن بقية المفاسد وإن كثرت وعظمت مبنية عليها**"[٣٨].

ويدعم قوله باستدلال في خاتمة تفسيره يؤيد ما ذكر في أجزائه الأُول، قائلاً:

"والهداية التي هي نوع إيذان وإعلام منه تعالى للإنسان هداية فطرية، هي تنبيه بسبب نوع خلقته وما جهز به وجوده بإلهام من الله سبحانه على حق الاعتقاد وصالح العمل، قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها) ... **وهداية قولية من طريق الدعوة يبعث الأنبياء وإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع الإلهية.**

ولم يزل التدبير الربوبي تدعم الحياة الإنسانية بالدعوة الدينية القائم بها أنبياؤه ورسله ...

ومن الفرق بين الهدايتين أنّ الهداية الفطرية عامة بالغة لا يستثني منها إنسان لأنّها لازم الخلقة الإنسانية وهي في الأفراد بالسوية غير أنّها ربما تضعف أو يلغو أثرها لعوامل وأسباب تشغل الإنسان وتصرفه عن التوجه إلى ما يدعو إليه عقله ويهديه إليه فطرته أو ملكات وأحوال رديئة سيئة تمنعه عن إجابة نداء الفطرة ...

وأمّا الهداية القولية وهي التي تتضمّنها الدعوة الدينية فإنّ من شأنها أن تبلغ المجتمع فتكون في معرض من عقول الجماعة فيرجع إليها من آثر الحق على الباطل...

ثمّ من الدليل على أنّ الدعوة الإلهية – وهي الهداية إلى السبيل – حقّ يجب على الإنسان أن يتبعها فطرة الإنسان وخلقته المجهزة بما يهدي إليها من الاعتقاد والعمل، ووقوع الدعوة خارجا من طريق النبوة والرسالة فإنّ سعادة كل موجود وكماله في الآثار والأعمال التي تناسب ذاته وتلائمها بما جهزت به من القوى والأدوات فسعادة الإنسان وكماله في إتباع الدين الإلهي الذي هو سنة الحياة الفطرية وقد حكم به العقل وجاءت به الأنبياء والرسل عليهم السلام."[٣٩]

وهكذا نجد أنّ من مميزات هذه الرؤية التوحيدية هي الرعاية الربانية للفرد، فالإله الواحد هو الذي يمسك بماهية الكون وبحقيقة الإنسان في آن، ولم يخلق الإنسان عبثاً، بل خلقه لنظام وبانسجام، وهيأ له رعاية وهداية توصله ليكون بالشرف والكرامة التي خصّه بها كمخلوق مميز، وخليفة لهذا الإله الواحد. وكان هو المسؤول عن تربيته وتكميل تربيته في هذا الكون، الذي يمثل مدرسة لهذا الإنسان في طي أطوار تكامله فهو الذي يملك زمام أمره بدءً وعلى الإنسان أن يقرّ بذلك (إِنّا لِلّهِ) *وسيكون مصيره* (وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) [البقرة: ١٥٦] وحركته التكاملية وأهدافه المنشودة تحقيقاً لـــ (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) [غافر: ٣].

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ – المجلد ٤٨ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

الخاتمة.. استنتاجات وتوصيات:

-فكرة الإله فكرة جوهرية في مفهوم الدين عند الطباطبائي وهي الركيزة الأولى في المجتمع الديني (= الاعتقاد بالإله الواحد)

-اعتمد العلامة الطباطبائي على فكرة (التوحيد) كفكرة عقائدية ضرورية، لا بد أن يتشكّل عليها وجدان الإنسان كبداية. ومننها تنبثق سائر الاعتقادات الأخرى، وتتبين أهميتها؛ كالعدل، والنبوة والمعاد.

-عدّ الطباطبائي فكرة (التوحيد) ضمانة أخلاقية. أو عنصر الضمان لأخلاقية أيّ فعل وسلوك يتصف به الإنسان، حيث جعلها فكرة جوهرية في الأخلاق القرآنية، مصدرها الحبّ الإلهي المتمثّل بتحقيق أهداف الإله في الحياة.

-يعتقد العلامة الطباطبائي أنّ في تاريخ البشرية مسالك أخلاقية متعددة متفاوتة الدرجات في السعي بمجتمع الإنسان لسعادته، وأهمها المسالك الدينية لتكوين مجتمع ذي هوية وانتماء ديني.

- يفرّق العلامة بين مستويات من السلوك الأخلاقي المذكورة بحسب الغايات التي يهدف إليها، ويجعل السلوك الأخلاقي القائم على فكرة (التوحيد) والحب الإلهي أرقى أنواع السلوك الأخلاقي، ومن مختصات القرآن الكريم.

-توصي هذه الورقة البحثية بضرورة التركيز على فكرة التوحيد كفكرة ذات بعدين (عقائدي وسلوكي) في حياة المجتمعات، ولا يمكن الاستفادة من أحدهما دون الآخر.

-فكرة التوحيد لا يتضح فائدتها كفكرة عقائدية من دون ترشحها في الجانب السلوكي في حياة الإنسان واصطباغ أهدافه بغايات توحيدية تكون طاقتها وقوتها مستمدة من الحبّ الإلهي.

-توصي هذه الدراسة أيضاً بأنّ تحتلّ فكرة التوحيد مكانتها في مقررات الدراسات الأكاديمية الثانوية أو الجامعية؛ لما لها من دور كبير كنقطة محورية في وجدان الفرد تبنى عليها رؤيته للحياة، ونظامه المجتمعي الديني، وهويته الأخلاقية الدينية.

الهوامش

* تدريسي في كلية الإمام الكاظم (ع) للعلوم الإسلامية الجامعة – أقسام البصرة. , aljazairytco@gmail.com
jafar.sadiq@alkadhum-col.edu.iq

[١] – السبب في تأجيل المقارنة والعلاقة بين المجتمع الديني والمجتمع المدني، ورصد وجود تقاطع بين المفهومين أو عدم وجوده، أنّ هذه المفاهيم مرّت بتحولات في تشكّلها ودلالتها الفلسفية والمفهومية، وخاصة مفهوم (المجتمع المدني)، فلا يمكن فتح مجال المقارنة هنا من دون استيفاء حدود المفهوم والمراد منه على وجه التحديد.

[٢] – انظر: الطباطبائي، محمد حسين، الإسلام الميسر موسوعة في العقائد والأخلاق والأحكام، نقله إلى العربية جواد علي كسّار، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، ط١ ربيع ١٤١٩ هـ، ص٢٠-٢١. وكذلك انظر: الطباطبائي، محمد حسين، القرآن في الإسلام، تعريب السيد أحمد الحسيني، دار الزهراء للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط١، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م. ص٧

[٣] – صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني بيروت – لبنان، ط بلا، سنة ١٩٨٢، ج٢، ص٣٤٥.

[٤] – الجوهري، محمد، المدخل إلى علم الاجتماع، ص٣٢.

[٥] – المصدر السابق، ص٣٢.

[٦] –"الدين في الفرنسية/ Religion، في الإنجليزية/ Religion، في اللاتينية/Religio"، المصدر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب – بيروت، سنة ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م.، ج١، ص٥٧٢.

[٧] – الرازي، أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.، ج٢، ٣١٩.

[٨] – ابن منظور، لسان العرب، (مادة دين)

[٩] – الزَّبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، الناشر دار الهداية، ج٣٥، ص٥٣ وما بعدها.

[١٠] – انظر: دراز، محمد عبد الله، الدين.. بحوث ممهدة لدراسة الأديان، مطبعة الحرية بيروت، دار القلم، تاريخ بلا، ص٣٠-٣١

[١١] – يلاحظ أن مفهوم (الطاعة) و (الخضوع) و (الانقياد) بشكل مباشر أو التزامي مأخوذ في معنى الدين في المفهوم عند العرب واللغة العربية، وهذا لوحده – ومن دون الرجوع لقراءة استقرائية لمفهوم (الطاعة) وما يرادفه في النصوص القرآنية – يفند ما ذهب إليه الدكتور محمد عابد الجابري من أنّ مفهوم (الطاعة) مفهوم مأخوذ من الموروث الفارسي حصراً، وأنّ الأخلاق الإسلامية العربية تأثرت بالموروث الفارسي في توظيفها لمفهوم (الطاعة)! ثم يبني على ذلك نتائج عدة، ويرجع ظهور بعض المفاهيم الدينية كـ (الإمامة) نتيجة لهذا التوظيف للقيمة الأخلاقية المركزية من الموروث الفارسي (=الطاعة)! انظر الجابري، محمد عابد، العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، ط٦، ٢١٤، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

[١٢] – خسروبناه، عبد الحسين، حقيقة الدين – تأصيل فلسفي لاهوتي كلامي، مجلة الاستغراب، العدد ٣، السنة الثانية ربيع ٢٠١٦-١٤٣٧هـ. ص١٤٩.

[١٣] – انظر، دِرَاز، محمد عبد الله، الدين.. بحوث ممهدة لدراسة الأديان، مصدر سابق، ص ٣٨.

[١٤] – انظر: دِرَاز، محمد عبد الله، الدين.. بحوث ممهدة لدراسة الأديان، مطبعة الحرية بيروت، الناشر دار القلم، تاريخ بلا، ص٣٨.

[١٥] الطباطبائي، محمد حسين، الشيعة: نص الحوار مع المستشرق كوربان، مؤسسه أم القرى للتحقيق والنشر – بيروت، ط٢، ص٥٠

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٨ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

[١٦] – في الأصل الكلمة وردت هكذا (معرفة) بالتاء المربوطة، وراجعت أكثر من نسخة وقد تكرر الأمر، وأظن أنّه خطأ طباعي.

[١٧]– الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، نشر اسماعيليان – قم، ط٢، ١٣٧١، ج٢؛ ص١٣٠

[١٨]– الطباطبائي، محمد حسين، الشيعة: نص الحوار مع المستشرق كوربان، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر– بيروت، ط٢، ص٥١

[١٩] – انظر: الطباطبائي، محمد حسين الإسلام الميسر، ص٨٩ – ٩٠.

[٢٠] – الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص١١١.

[٢١] – الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١١، ص١٥٧

[٢٢] – المصدر السابق، ص ١٥٨

[٢٣] – الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص١٢٨.

[٢٤] – [٢٤] – الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص١٢٨.

[٢٥] – المصدر السابق، ص١٢٨

[٢٦] – المصدر السابق، ص١٢٩.

[٢٧] – المصدر السابق ص١٢٩.

[٢٨]– نركز على كونه من بداية التفسير ومن بدايات ما كتب فيه، لنؤكد رؤيتنا أن هذا التحليل من العلامة للمسالك الأخلاقية لا يتقاطع ما كتبه من تحليل للقضية الأخلاقية من ناحية معرفية، في كتابه الميزان أو في كتبه الأخرى. أما كيفية حل الإشكال؟ وما هو الحبل السري الذي يوصل بين البحثين ويحل المعضلة فهذا ما تكفلنا به في دراسة أخرى لنا (قيد الإنجاز إن شاء الله تعالى) وسنتعرض للربط بين الجانبين المعرفي (الأخلاق كمدركات عقلية فلسفية) والجانب الديني للأخلاق (أخلاق القرآن) ولكن بشكل يسير هنا.

[٢٩]– الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج١، ص٣٥٦.

[٣٠]– هذه التسميات للمسالك الثلاث مأخوذة من عبارات العلامة الطباطبائي نفسه.

[٣١]– الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص ٣٥٦.

[٣٢]– الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص: ٣٨٠ – ٣٨٢، سورة البقرة الآيات ١٥٣ – ١٥٧.

[٣٣]– انظر مقالة دراسة الآثار الفردية والاجتماعية للأخلاق التوحيدية في القرآن عند العلامة الطباطبائي)، مجلة: دراسات شيعية (العنوان بالفارسية: و اكاوى آثار فرد ى واجتماعى اخلاق توحىدى قرآن از دىدگاه علامه طباطباىى(ره)، (=شيعه بزوه)، الدورة٣، العدد١٢، ص٤٩–٧٠.

[٣٤]– الميزان، مصدر سابق، ج١، ص٣٦١.

[٣٥]– الميزان، مصدر سابق، ج١، ص٣٥٨.

[٣٦]– الميزان في تفسير القرآن، ج ٢٠، ص: ١٢٣ – ١٢٤، سورة الإنسان الآيات ١ – ٢٢.

[٣٧]– الميزان في تفسير القرآن، ج ٢، ص: ١٤٨، سورة البقرة – ٢١٣.

[٣٨]– الميزان في تفسير القرآن، ج ٢، ص: ١٨٨، سورة النساء – ٩٥ – ١٠٠.

[٣٩]– الميزان في تفسير القرآن، ج ٢٠، ص: ١٢٣ – ١٢٤، سورة الإنسان الآيات ١ – ٢٢.

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ – المجلد ٤٨ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

المصادر:

القرآن الكريم.

١. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر– بيروت، ط٣، سنة ١٤١٤هـــ.

٢. الجابري، محمد عابد، العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، ط٦، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

٣. الجوهري، محمد، المدخل إلى علم الاجتماع، ناشر بلا، ط٢، ٢٠٠٧م.

٤. خسروبناه، عبد الحسين، حقيقة الدين – تأصيل فلسفي لاهوتي كلامي، مجلة الاستغراب، العدد٣، السنة الثانية ربيع ٢٠١٦–١٤٣٧هـــ.

٥. دراز، محمد عبد الله، الدين.. بحوث ممهدة لدراسة الأديان، مطبعة الحرية بيروت، الناشر دار القلم، تاريخ بلا.

٦. الرازي، أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـــ – ١٩٧٩م.

٧. الزَّبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، الناشر دار الهداية.

٨. صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني بيروت – لبنان، ط بلا، سنة ١٩٨٢.

٩. الطباطبائي، محمد حسين، الشيعة: نص الحوار مع المستشرق كوربان، مؤسسه أم القرى للتحقيق والنشر– بيروت، ط٢.

١٠. الطباطبائي، محمد حسين، الإسلام الميسر موسوعة في العقائد والأخلاق والأحكام، نقله إلى العربية جواد علي كسّار، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، ط١ ربيع ١٤١٩ هـــ.

١١. الطباطبائي، محمد حسين، القرآن في الإسلام، تعريب السيد أحمد الحسيني، دار الزهراء للنشر والتوزيع، بيروت لبنان،ط١، ١٣٩٣هـــ – ١٩٧٣م.

١٢. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، نشر اسماعيليان – قم ،ط٢، ١٣٧١هـــ.